إضاءة

رغم مرور ربع قرن على صدور كتاب «صورة العرب لدى الاتراك» للباحث والاكاديمي العراقي، فإنّه ما زال ابرز ما كُتب في سياق العلاقة بين الشعبَيْن الجارين. حيرةٌ يُظهر ابراهيم الداقوقي تقلّباتها وتحوّلاتها تحت وطأة الاعيب السياسة

إبراهيم الداقوقي سيرة الخروج من قطيعةٍ طويلة

صورٌ تركية عن العرب

إسطنبول ـ **احمد زكريا**

على كثرة الدراسات التي تناولت صورة العرب لدى الرأي العام الغربي، ودور الإعلام في تكوين هذه الصورة، نلاحظ فقراً كبيراً في الدراسات التي تتناول صورة العرب لدى العالم الشرقي نفسه، ولا سيّما في تركيا، الجارة وصاحبة التاريخ المشترك مع العرب لأكثر من خمسمائة عام. فقرٌ يُسجّل خصوصاً بعد تعرُّض الشعبين لقطيعة استمرّت لما يقرب من ثمانية عقود، كتب كلٌّ منهما خلالها أسبابه في القطيعة التي بدأت مع الحرب العالمية الأولى. من هنا جاءت أهمّية الدراسة التي أعدّها الباحث والأكاديمي العراقي إبراهيم الداقوقي (1934 ـ 2008) في منتصف التسعينيات، تحت عنوان «صورة العرب لدى الأتراك» (مركز دراسات الوحدة العربية، 1996) ولعلها أوّل دراسة في هذا المجال بعد القطيعة.

ورغم مرور ربع قرن على صدور هذه الدراسة، فإنّها تظلّ من أبرز ما كُتب في هذا السياق. وقد بدأت علاقة الداقوقي بالثقافة التركية مبكّراً، حيث وُلد في مدينة داقوق، قرب كركوك في العراق، لأب تركماني وأم كردية، وعُيّن ملحقاً صحافياً في السفارة العراقية بأنقرة في أوائل الستينيات. وإلى جانب ترجماته لبعض الأدباء الأتراك إلى العربية، وعلى رأسهم يشار كمال، عمل أيضاً على العديد من الدراسات حول الثقافة التركية، من بينها رسالته عن الشاعر العثماني فضولي، وشارك مع آخرين في إعداد قاموس عثماني - تركي - عربي صدر في أربعة مجلّدات.

خلال إقامته لسنوات في تركيا، انخرط الداقوقي في الحياة الثقافية ببلد ناظم حكمت، وأقام علاقات وطيدة بعدد كبير من الكُتّاب والأكاديميين الأتراك، وعمل محاضراً في قسم الآداب في «جامعة مرمرة» بإسطنبول. في تلك الأثناء، لاحظ الداقوقي صورتَيْن نمطيّتين عن العرب في تركيا، الأولى تصفهم بـ«التخلّف» المتمثّل بالصراع القائم بين العرب أنفسهم، وتقدّمهم كمسرفين ومحبّين للنساء ولا يمكن الاعتماد عليهم، والثانية تربطهم بالإسلام فقط، وتُعيد وصفهم بـ«القوم النجيب» الذي انجب الرسول محمداً، وهي تسمية عثمانية قديمة.

في هذا السياق، سعى الداقوقي لتتبُّع مكوّنات الصورة العربية، سلباً وإيجاباً، لدى الرأي العام التركي، وامتدادات وتقلّبات وتناقضات هذه الصورة في دراسته حول صورة العرب لدى الأتراك. وقد بدأها بتناول تاريخ العلاقات الثقافية المشتركة بين الشعبَيْن، منذ استخدام الأتراك للحروف العربية في القرن العاشر الميلادي، ومحاولات محمود الكشغري في القرن الحادي عشر تعليم العرب اللغة التركية في معجمه الشهير «ديوان لغات الترك»، الذي أهداه إلى الخليفة العبّاسي المقتدي بأمر الله. بالإضافة إلى تناوله لمسألة تأثير العربية في اللغة التركية، وتأثير الأخيرة في اللهجات العربية.

يركّز الداقوقي في دراسته على مرحلة ما بعد انهيار الدولة العثمانية، عندما أصبح العرب والأتراك على مفترق طرق بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وثورة بعض العرب على الاتّحاديين. ويؤكّد أن مصطفى كمال باشا، قائد حركة التحرير الشعبية لإنقاذ الأناضول، الذي سيؤسّس الجمهورية التركية فيما بعد، كان على اتّصال بالقوميين العرب في سورية والعراق في أثناء حرب الاستقلال من أجل تحقيق الأهداف القومية للعرب والأتراك معاً ضدّ مطامع الغرب في بلادهم. إلّا أنّه يرى أنّ المخابرات الفرنسية لعبت دوراً بارزاً في قطع الطريق على محاولات الصلح والتفاهم بين العرب والأتراك، من خلال إرضاء مصطفى كمال بالانسحاب الجزئي من الأناضول.

ورغم أنّ أتاتورك عزل تركيا عن محيطها العربي، كما هو معروف، فإنّ الداقوقي يرى أنّ العرب لم يكن لديهم ذات الموقف من الجمهورية التركية الوليدة، وأنّ اعتراف تركيا بالكيان الصهيوني المحتلّ عام 1948، أي بعد رحيل أتاتورك بعشرة أعوام، هي نقطة التحوُّل الحقيقية في علاقة العرب بتركيا، وأنّ العلاقات بينهما مرّت بفترات ركود وتوجّس حتى وصول سليمان ديميريل إلى الحكم عام 1993، وهو الذي وعد بأن تقف تركيا إلى جانب العرب والمسلمين في قضاياهم المشروعة، وأقيمت في عهده عدة مؤتمرات في أنقرة والقاهرة وبيروت من أجل مناقشة المشاكل الرئيسية التي تعترض سبيل العلاقات بين العرب والأتراك، في ضوء التحوّلات على صعيد السياسة الدولية.

> يرى في اعتراف تركيا بـ«إسرائيل» عام 1948 بداية للقطيعة
>
> يدعو الشعبين إلى عدم التوقّف عند عقد سوداوي من علاقتهما

ومن بين أبرز العوامل التي يرى الداقوقي أنّها أسهمت في تكوين الصورة السلبية عن العرب لدى الرأي العام التركي، هي ظاهرةُ التطرُّف القوميّ فيه، إذ تبنّى بعض المفكّرين الأتراك فكرة الوحدة التركية الممتدّة من البحر الأدرياتيكي حتى شمال الصين، وأنّ ثلاثينيات القرن الماضي شهدت إعادة كتابة التاريخ التركي بناءً على نبذ التراث العثماني بأكمله، ووفقاً لأفكار مؤرّخي الفترة الكمالية المتشبّعين بالأفكار القومية المتطرّفة، التي تتجاهل العرب، ولا تذكرهم إلّا كأعداء وخَوَنة وطاعني الأتراك في الظهر.

ولعلّ أهمّ فصول كتاب الداقوقي هي التي يتتبّع فيها الثابت والمتحوّل في الصورة العربية لدى الأتراك داخل أنماط الفولكلور وفي الكتب المدرسية ووسائل الإعلام التركية منذ تأسيس الجمهورية حتى منتصف التسعينيات. ويذهب الداقوقي إلى أنّ الفولكلور الشعبي التركي تأثّر لوقت طويل بالفولكلور العربي، وأنّ معارف الإنسان الشعبي التركي لا تكاد تختلف عن معارف الإنسان الشعبي العربي، نظراً للتاريخ المشترك الطويل، الذي أفرز الكثير من الحكايات والسِّير الشعبية والأمثال والتعابير التي وجدت فيها العامّة طريقاً للخلاص من الكبت النفسي والاجتماعي الذي كانت تعاني منه. ورغم هذا التشابه، يرى الداقوقي أنّ الفولكلور التركي لم يخلُ من بعض الصور السلبية عن العرب، ناظراً إليها كنتاج للتراكم الثقافي بين الشعبين والخبرة التاريخية والتفاعل الاجتماعي - بأفراحه وأتراحه. إلّا أنّ هذه الصور الفولكلورية السلبية عن العرب بدأت في الزوال، ولا تُذكر في الأدب الشفاهي التركي إلّا لماماً، خصوصاً في المدن الكبرى المتأثّرة بالثقافة الغربية فقط.

مدخل محطة قطار القدس/ يافا عام 1900 (Getty)

ماذا عن اليوم؟

يعد «صورة العرب لدى الأتراك» (الخلاف)، نشر ابراهيم الداقوقي دراسة اخرى مكمّلة، ولا تقلّ اهمّية، صدرت بعنوان «صورة الاتراك لدى العرب» (2001)، اتّبع فيها المنهجية التي سلكها في عمله الأوّل، مع عكْس وجهات النظر. لكنّ مع مضيّ سنوات على نشر الكتابين، نجد اليوم بحاجة الى دراسات جديدة في السياق نفسه، خصوصا بعد انتهاء سنوات عزْل الشعبيْن عن بعضهما، وانفتاح تركيا على العالم العربي خلال العقدين الاخيرين.

وقفة مع

جمال حيدر

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع قرّائه

لندن ـ **العربي الجديد**

■ ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

يشغلني هذه الأيام دور المثقف العربي في منطقةٍ محتدمة. أؤمن إلى حد كبير بأن المثقف هو الناطق باسم الصامتين، والمجبرين على السكوت في الأوطان المسوّرة بالعذاب. في يوم ما، لن يقول الناس إنّ الأزمنة كانت سيئة، بل سيشيرون بسبّاباتهم صوب المثقف ويتساءلون: لماذا فضّل الصمت؟ ما زال للمثقف الحقيقي إمكانية التغيير، لأنّه يصنع وقوده وأدواته، هذا يعني أنه يغيّر بكلّ ثقة، لكن بصبر عجيب، يغير نقطة نقطة، في بحر واسع متلاطم، لكنّها النقاط التي ستصنع الطوفان تالياً.

> سيشيرون بسبّاباتهم صوب المثقف ويتساءلون: لماذا فضّل الصمت؟

■ ما هو آخر عمل صدر لك وما هو عملك القادم؟

رواية بعنوان «أجنحة في سماء بعيدة» صدرت مؤخّراً عن دار لندن للنشر في العاصمة البريطانية، تتناول تفصيلاً صغيراً من مشهد الانتفاضة الشعبيّة التي شهدها العراق عام 1991 ضدّ النظام الحاكم آنذاك. يتمحور العمل حول شخصيّات متناقضة المنابت والأقدار، تتّخذ من مقبرة «وادي السلام» المقبرة الأوسع على الكرة الأرضية، ملاذاً لها، هرباً من الأجهزة الأمنية، إضافة إلى علاقتها بالمكان: القبور الممتدّة على مرمى البصر تحت الشمس والغبار، وظلال أشجار السدر الموزّعة في مفارق المكان. تتواصل الأحداث في سياق البحث عن منفذ للهروب من المصير المفزع الذي يحاصر أيامهم. العمل المقبل سيكون رواية ستصدر عن ذات الدار مطلع العام المقبل، تستعرض الانفجار الإرهابي الذي استهدف مركزاً تجارياً في حيّ الكرادة في بغداد، مخلّفاً ندوباً في قلوب الأحياء الذين فقدوا أحباءهم، وما زالوا يواصلون التحديق صوب واجهة المجمّع المحترق بعد خمس سنوات بحسرة، تلفّهم فاجعة الفقدان.

■ هل أنتَ راضٍ عن إنتاجك ولماذا؟

كلا... الرضا غاية لا تدرك، هذه الغاية على بُعد مسافات قصيّة مني، وهي تعني أيضاً أنك قد وصلت إلى حافة الاطمئنان. ليس من اطمئنان في الإبداع مطلقاً. فأنا على قلق دائم كأنّ الريح تحتي، مثلما قال المتنبي.

■ لو قيّض لكَ البدء، من جديد، فأي مسار كنت ستختار؟

لو... ما أجمل وأقسى هذه المفردة، لو قُيّض لي البدء من جديد، علما أن العودة إلى الوراء محفوفة بالمخاطر، سأختار عن قصد ذات المسار، وبشغف أكثر سعة ورسوخاً، وسأختار بيس، الحبيبة ذاتها أيضاً. الحياة قصيرة جداً، أقرب إلى ومضة خاطفة، لهذا تستحق المغامرة. الندم لن يجدي نفعاً على ما مضى، والحاضر هو أغلى ما نملك.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أن يكون هذا العالم أكثر رأفة بنا. الرأفة هي وليدة شرعية للوعي، وهي بحاجة ماسّة إلى مناخات واسعة من المحبّة والاعتراف بالآخر المختلف. الرأفة المتجذّرة بالبشر، تحترم الإيقاع البطيء للتطور، وهي بذلك على خلافٍ حقيقيٍّ مع الحروب، والإقصاء، والحصارات، والقمع، والإذلال التي تتعرض لها الإنسانية على مرّ العصور، ولا تزال.

■ شخصية من الماضي تود لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

الحُسين بن منصور الحلاج، الذي جعل من التصوف العرفاني السبيل لإحقاق العدالة، ومعاداة التعسُّف والطغيان، وأداة فاعلة ضد السلطات الظالمة، مبتعداً عن الإيمان الفردي الذي يوشح العابد بالمعبود.

■ صديق/ة يخطر على بالك أو كتاب تعود إليه دائماً؟

الكثير من الكتب قرأتها مرات عدّة، أعود إليها في مفاصل زمنية خاصة، عديدة هي الأسباب التي تدعوني إلى العودة لها، ربما لأنّها تُذكّرني بقيمة ما مرّ بنا، وذلك الذي سيأتي. أعود مراراً إلى نتاجات ابن رشد، فنحن بأمس الحاجة إلى عقلانيّته وانفتاحه في هذا الزمن المحاصر بظلاميّة عجيبة.

جمال حيدر

بطاقة

كاتب ومترجم عراقي من مواليد بغداد التي غادرها في النصف الثاني من عقد السبعينيات. تنقّل بين مناف عدة ويقيم حالياً في لندن. توزعت أعماله بين النقد والأدب والأجناس والرواية وأدب الرحلات والترجمة، من بينها: «الصيف الأخير - دراسة في نتاجات يانيس ريتسوس الإبداعية (1997)، «بغداد - ملامح مدينة في ذاكرة الستينات» (2002)، «الغجر - ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب» (2008)، «حكايات مدن بين الهامش والمدن» (2012)، «الهيبيز - الجنس الموسيقى والمعرفة المضادة» (2017)، «المعنى والظل - في الأدب والفنون والمعرفة» (2019)، «أجنحة في سماء بعيدة» (رواية، 2021). ومن أبرز أعماله في الترجمة أربعة مجلدات من أعمال الشاعر اليوناني يانيس ريتسوس (ترجم الثلاثة الأخيرة منها بالاشتراك مع الشاعر عبد الكريم كاصد).

متابعة

أيام قرطاج المسرحية ذلكَ الميراث الذي لا ينبغي إهداره

العرض الأجمل يقع خارج القاعات

تونس ـ **ليلى بن صالح**

بداية من بعد غد السبت، الرابع من كانون الأول/ ديسمبر الجاري، تعود «أيام قرطاج المسرحية» التي تُقام فعالياتها في قاعات تونس العاصمة حتى الثاني عشر من نفس الشهر. دورة تأتي بعد احتجاب سنة بسبب تأجيل جميع التظاهرات الثقافية العام الماضي، وإن كان من الجدير التنويه إلى أن هذا الاحتجاب لم يؤثّر على إيقاع تنظيم المهرجان بما أنه منذ إطلاقه في بداية ثمانينيات القرن الماضي كان يُقام كلّ عامين، ولم يدخل نظام الإيقاع السنويّ إلا في 2016.

عودة «الأيام»، في دورتها الثانية والعشرين، هي أقرب إلى محاولة اطمئنان على الحياة الثقافية برمّتها، فمن المعلوم أن هذا المهرجان بالذات له رونقه الخاص، حيث يبثّ حيوية في مدينة تونس عبر طوابير الجمهور خارج القاعات، أو النقاشات بالقرب من المسارح، كما ظهرت في السنوات الأخيرة محاولات فرق مسرح الشارع لاستثمار التظاهرة من أجل إضاءة الأشكال الفنية المبتكرة التي يقدّمونها.

منذ أيام، أقيمت الندوة التقديمية للتظاهرة، وكان من الواضح أن هناك بحثاً عن تصوّرات جديدة، من ذلك الاجتهاد في تنويع العرض بحيث لا يكتفي بتقديم المسرحيات في القاعات الأساسية لتونس العاصمة، فجرى إطلاق فقرات مستحدثة مثل «مسرح الحرية»، وهي عروض مسرحية جرى إنتاجها داخل السجون، وبرنامج بعنوان «تعبيرات مسرحية من المهجر»، إضافة إلى مساحة لمسرح الطفل وأخرى لمسرح الهواة، وهي اليوم من أنشط قطاعات الفن الرابح، بمجموع قرابة المائة عمل مسرحي يشارك 14 منها في المسابقة الرسمية، من بينها ثمانية عروض عربية.

> قد تكون عودة التظاهرة التونسية سبباً كافياً لدى البعض للفرح بعودة المسرح ومهرجاناته. لكنّ الأهم هو أن تحافظ «الأيام» على هويتها وإشعاعها

> تُقرا عودة المهرجان كمحاولة اطمئنان على الحياة الثقافية برمّتها

تتضمّن الدورة جرعة تكريمية تبدو مبالغاً فيها بعض الشيء، ففي الندوة التقديمية جرى كشف قائمة مطوّلة من الأسماء التي سيجري الاحتفاء بها كالممثّلة المصرية سميحة أيوب ومواطنيها أحمد بدير وأحمد فؤاد سليم، وعواطف نعيم من العراق، وفضيلة حشماوي من الجزائر، وأمل دباس من الأردن، وفلوريس ادجنهوم من البنين، وجان سيبي أكومو من كينيا، ومن تونس الأسعد بن عبد الله، وجمال المدائني، وفاتحة المهدوي، وعبد الغني بن طارة، وسعيدة الحامي، ونورالدين الورغي.

يقترح المهرجان كذلك مجموعة من اللقاءات الفكرية أهمها ندوة تمتدّ لثلاثة أيام، من 7 إلى 9 كانون الأول/ ديسمبر الجاري، بعنوان «المسرح زمن المخاطر»، إضافة إلى ندوة حول المساحة المسرحية الفارغة وأخرى عن تقنيات الارتجال.

ذلك ما يقترحه المنظّمون، ويبقى نجاح التظاهرة مرهوناً بتفاعل الجمهور مع هذه المقترحات، فأيّ معنى لجدول عروض مزدحم ما لم تكن القاعات مزدحمة؟ ربما ستمنع الإجراءات الوقائية هذا العام كل ازدحام داخل القاعات، لكن قياس تفاعل الجمهور مع المهرجان لا يُقاس بعدد التذاكر المقطوعة، ببساطة لأنّ من تقاليد «أيام قرطاج المسرحية» حضورُها في الفضاء العام، وذلك هو الميراث الذي لا ينبغي لأية دورة أن تُهدره.

من مسرحية «منطف الطير» التي ستشارك في التظاهرة

فعاليات

حتى نهاية العام المقبل، يتواصل في «المتحف الوطني الاردني للفنون الجميلة» بعمّان مشروع **حركة زجل** الذي انطلق الاربعاء 24 تشرين الثاني/ نوفمبر. يضمّ المشروع حفلات في الموسيقى والرقص المعاصر ورسوم الغرافيتي، ويختتم بمعرض يروى قصّة ثقافة الهيب الهوب في الاردن منذ بدايتها والى اليوم.

يُطلق «المعهد الفرنسي للآثار الشرقية» في القاهرة، عند الثامنة والنصف من مساء الاربعاء المقبل، **ملتقى الدراسات الاركيوميترية** بمشاركة عدد من الباحثين في التاريخ واخصائيي الترميم، والآثاريين. يناقش المشاركون محاور عدّة منها التقنيات الحديثة في حفظ المقتنيات الاثرية والتراثية، ودور الادلّة الاثرية والدراسات الاركيومترية في إعادة فهم القطع الأثرية.

يتواصل في **المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية** بالرباط، حتى منتصف الشهر المقبل، معرض فوتوغرافي لنقوش صخرية تعود الى العصر الحجري الحديث في عدد من المناطق المغربية بعدسة الاركيولوجي والكاتب الفرنسي **روجير ميمو**. تغطّي الصور المعروضة مواقع هضبة ياغور، واوكايمدن، وجبل رات.

تحتضن «دار النمر للثقافة والفنون» في بيروت معرض **الشريط المصوّر العربي اليوم: الجيل الجديد** الذي افتتح منتصف تشرين الاول/ اكتوبر الماضي ويتواصل حتى نهاية العام الجاري. من بين الفنانين والمجموعات المشاركة: **زينب قاسيكي**، و**مريم مصفيوي**، و**روائد عيسى**، و**فؤاد مزهر** و**مختبر 619**، **والسمندل**.